وللدين، وللحرب، الخ. ولعل تلك النظرة النفسية الشاملة هي سرّ انبهار الدارسين بالتحليل النفسي، وهي، أيضاً، مكمن خطورته، وسبب تناغمه وملاءمته لأهداف المخطط الصهيوني.

التحليل النفسي والصهيونية

لقد تصدّت مدرسة التحليل النفسي الفرويدي، بجسارة نادرة، لتفسير الحضارة البشرية، بكافة أوجهها، البنّاءة والهدّامة، على حد سواء، باعتبار ان تلك الأوجه، جميعاً، انما هي استجابات لصراعات نفسية عميقة تكمن في اغوار النفس الانسانية. يستوي في ذلك بناء السدّ العالي وقصف هيروشيما بالقنبلة الذرية؛ ولا فرق في ذلك بين الصلاة والقتل، ولا بين نظم الشعر واطلاق الرصاص، ولا بين ممارسة الجنس ورياضة الملاكمة. فكل ذلك لا يعدو ان يكون صوراً متباينة، امّا للتعبير عن تلك النزعات التدميرية الجنسية المغروسة بالوراثة في اغوار النفس الانسانية، وامّا للتعبير عن محاولات التغلّب على تلك النزعات واعلائها. بل ان تلك المحاولات الاخيرة محكوم عليها بالقصور، حيث «لا فائدة من محاولة التخلّص من ميول الناس العدوانية». وخلاصة القول، اذاً، ان التركيب السيكولوجي يصبح لدى مدرسة التحليل النفسي سبباً وأصلاً لكل ما عداه، بدلاً من ان يكون نتاجاً للظروف الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية.

ولم يأل أصحاب التحليل النفسي جهداً، منذ قامت مدرستهم وحتى يومنا هذا، في تطبيق منهجهم على مناحي الحياة وظواهرها كافة، بل وشخصياتها التاريخية أيضاً. وحظت ظاهرة النازية بقدر كبير من اجتهادات المحلّلين النفسيين، لتفسيرها وفقاً لمنطلقاتهم الفكرية. وتركّزت جهودهم، في هذا الصدد، على ترسيخ ما يسمى بخاصية «معاداة السامية»، وارجاعها الى خصائص ثابتة عميقة، تميّز اليهود، من ناحية، وتميّز غير اليهود، من ناحية أخرى.

ولم يكن غريباً، والأمر كذلك، ان يجد الفكر الصهيوني ضالّته في الاختزالية السيكولوجية الفرويدية. فتحت عباءتها، وحدها، يمكن التحدث برطانة علمية حديثة عن «سيكولوجية يهودية واحدة» تمتد من العهد القديم الى القرن العشرين، وتضمّ، تحت جناحيها، يهود الفلاشا ويهود الحضارة المسيحية الاوروبية ويهود الحضارة الاسلامية الشرقية. فالكل يهود، لهم نفس التكوين السيكولوجي المتوارث عبر الاجيال، والذي لم تستطع آلاف السنين من الشتات ان تنال من جوهره شيئاً. وتحت عباءة التحليل النفسي، وحدها، يمكن التحدّث برطانة علمية جذّابة عن الرفض العربي للاحتلال الاسرائيلي للأرض، باعتباره «غيرة من الشقيق الاكثر تفوّقاً وحضارة»، أو «محاولة للتنفيس عن تلك العدوانية الكامنة، التي لا تجد لها متنفّساً في نظم التربية العربية السائدة»، الخ.

فرويد والانتماء الصهيوني

لسنا بصدد الخوض في حديث ساذج عن علم يهودي وآخر غير يهودي. فالعلم انجاز بشري ملك للبشر جميعاً، اذا ما كان علماً بحق. ولسنا، كذلك، بصدد التعرّض الى مدى عملية التحليل النفسي، فمكان ذلك هو البحوث الاكاديمية العلمية المتخصصة. ولسنا، أيضاً، ممّن ينكرون ان بضعة أفراد من المحللين النفسيين قد اتخذوا مواقع عملية نضالية، بدرجة او بأخرى، من أمثال فرانز فانون وايريك فروم وفيلهام رايخ. ولكنهم، في النهاية، افراد لا يعبّرون عن مؤسسة التحليل النفسي وأفكارها الرسمية.

لقد نشأ التحليل النفسي، تاريخياً، في نفس الحقبة التي تبلور فيها الفكر الصهيوني، حيث